The Arab Islamic City: Building the True Religion

Mohammed Y. Abu Hussein[(1)*]

(1) Department of Architecture, Hijjawi Faculty, Yarmouk University, Irbid - Jordan.

Received: 21/11/2023
Accepted: 09/02/2024
Published: 30/06/2024

* ***Corresponding Author:***
mohammad.s@yu.edu.jo

DOI: https://doi.org/10.59759/art.v3i2.605

Abstract

This research aims to find correspondence between the principles of religion and their synonyms at the level of planning and architecture. It monitors the teachings of the true religion by tracing the built environment in the Arab Islamic city. It followed the descriptive analytical approach by looking at urban planning and architecture, and the corresponding Qur'anic verses and Prophetic Hadiths. The problem of the research lies in proving that Islam has harnessed planning and architecture to create an urban space to house its followers and implement its laws on the ground. The research hypothesis is that this city is specific to Islam, as it bears its name and is located within its geography. This research resulted in the fact that the city is essential to the true religion, and it presents it to the world as a living model of the Muslim nation, as it represents his method of calling to God Almighty, and this is unique in the history of cities and religions. It came as a result consistent with the fact that Islam is essentially a religion of civilization, and its city is considered an embodiment of its teachings. In his article, "Islam and Civilization", Georges Marçais emphasizes that Islam only appeared in a civilized society, and that the city is necessary for the implementation of Islamic rituals, especially congregational prayer. He says: In the city, one finds the virtues of Islam represented by mosques, schools, and other facilities.

Keywords: Islamic Architecture, Islamic City, Muslim Community, Islamic Civilization.

المدينة العربيّة الإسلاميّة: بنيان الدين الحنيف

محمد يوسف أبو حسين[1]

(١) قسم الهندسة المعمارية، كلية الحجاوي، جامعة اليرموك، إربد – الأردن.

ملخص

يهدف هذا البحث إلى إيجاد التطابق بين مبادئ الدين ومرادفاتها على مستوى التخطيط والعمارة، فهو يرصد تعاليم الدين الحنيف من خلال تتبع البيئة المبنية في المدينة العربية الإسلامية، واتبع المنهج التحليلي الوصفي عبر النظر في التخطيط الحضري والعمارة، وما يقابل ذلك من آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وتكمن مشكلة البحث في إثبات أن الإسلام قد سخر التخطيط والعمارة لإيجاد فضاء حضري لإيواء أتباعه وتطبيق شرائعه على الأرض، أمَّا فرضية البحث فهي أن هذه المدينة خاصة بالإسلام، وهي تحمل اسمه، وموجودة ضمن جغرافيته، ونتج عن هذا البحث أن المدينة أساسية للدين الحنيف، وهو يقدمها للعالم كنموذج حي للأمة المسلمة حيث تمثل أسلوبه في الدعوة إلى الله جل جلاله، وهذا فريد في تاريخ المدن والأديان، والنتيجة أتت متوافقةً مع حقيقة أن الإسلام بالأساس دين التمدن، ومدينته تعتبر تجسيداً لتعاليمه، ويؤكد جورج مارسيه، في مقالته "الإسلام والتمدن"، على أن الإسلام لم يظهر إلا في مجتمع متمدن، وأن المدينة ضرورية لتطبيق الشعائر الإسلامية لا سيما الصلاة الجامعة، فيقول: في المدينة يجد المرء فضائل الإسلام المتمثلة بالمساجد والمدارس وسائر المنشآت.

الكلمات المفتاحيّة: العمارة الإسلامية، المدينة الإسلامية، المجتمع المسلم، الحضارة الإسلامية.

المقدمة:

إذا كانت ديانات الأمم للمعابد وحدها، فالإسلام ليس للمسجد وحده، ولكن للمسجد وللدار وللسوق؛ فالإسلام يتابع حياة المسلم بأدق تفاصيلها، يبين له مشروعية أقواله وأفعاله، وعلاقته مع ربه ومع المجتمع الذي يحيا فيه، ولذلك كل عمل من أعمال المسلم له حكم من الأحكام الشرعية، وإن كانت الديانات الأخرى تقتصر في معظمها على الطقوس التعبدية فقط، فالإسلام عبادة، وقانون مدني، ونظام إداري، ومذهب خلقي، ونظام حياة، والإسلام يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبألفرد والمجتمع، والشريعة الإسلامية أساسها العدل وقاعدتها الحكمة والعمل لما فيه صالح المسلمين في الدنيا والآخرة، ومقوماتها الصلاح والإصلاح، ومصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية، وأقوال السلف الصالح وعلماء المسلمين.

والشريعة الإسلامية تعمل كموجه لحركة الإنسان وسلوكياته في جميع المجالات الحياتية، ومنها تنمية المدن الإسلامية وتخطيطها وتصميمها، فلا تناقض في الحضارة الإسلامية بين البنيان والمجتمع (انظر صورة رقم ١)، فالإسلام يهدف إلى بناء الإنسان المتوازن مادياً ومعنوياً، وهو يبني الأمة الإسلامية عن طريق بناء الدنيا بالدين، ومن أجل ذلك فقد طوع التخطيط والعمارة لخدمة تطبيق شرائعه، وقد نسبت المدينة الإسلامية إلى الإسلام بجداره، فهذه المدينة بالإضافة إلى ما تتميز به من خصائص حضارية عامة، تتسم بالصفة الإسلامية باعتبار أن الإسلام منهج حياة فيها، والقرآن والسنة يعتبران مصدرها التشريعي ألفاعل، بدليل أن عمارتها متوافقة مع المنظومة الأخلاقية للدين الحنيف، وهي غنية بزخارف من الآيات القرآنية والحكم الدينية ومما لا نظير له في سائر أنماط العمارة (انظر صورة رقم ٢). وهكذا ولدت المدينة الإسلامية، مما يشكل ظاهرة فريدة في تاريخ الأديان وتاريخ المدن على حد سواء، فليس هناك مدينة يهودية أو مسيحية أو بوذية أو هندوسية.

فالإسلام يهتم بالدين والدنيا معاً، وهي خاصيته الكبرى وتسمى بـ "الثنائية التكاملية". ومدينته لها ثقافة تشريعية تخطيطية جديدة قائمة بذاتها وليست مستمدة من تاريخ المدن عبر العصور؛ فهي تتميز عن سائر مدن العالم القديم بتخطيطها العضوي وليس الهندسي (انظر صورة رقم ٣ و٤)، وأيضاً بعدم حاجتها لنظام البلديات الذي احتاجت له المدن في سائر الحضارات ولغاية اليوم، وتميزت كذلك بأن بناءها وإدارتها، يقومان على مشاركة السكان في التخطيط، وذلك بالرجوع إلى الأحكام الشرعية الواردة في فقه البنيان (العرف، قاعدة لا ضرر ولا ضرار، حق الطريق، حق الارتفاق، حيازة الضرر، سد الذرائع، حق الشفعة، ...). ولقد حققت، هذه المدينة، نتائج مبهرة عبر تاريخ نجاحها الطويل سواء من حيث المضمون أو الشكل (انظر صورة رقم ٨)، فمن حيث المضمون: عاشت لقرون طويلة في أقاليم صحراوية وشبه صحراوية دون الحاجة للطاقة؛ تباين أجناس مواطنيها وديانتهم ولغاتهم؛ عدم وجود نظام طبقي؛ كانت كمختبر يحوّل المؤاخاة والتراحم إلى طاقة إنتاجية؛ تشابهها في جميع أصقاع العالم الإسلامي حيث تحمل نفس الاسم (انظر صورة رقم ٥)؛ ثباتها لمدة تزيد على ١٣ قرنا لأن مصدرها واحد وهو الشريعة الإسلامية، ولقداسة مصدرها التشريعي ولنجاحها في توفير حاجات المسلمين (الدينية والدنيوية) لم يقوموا بتغييرها أو حتى تعديلها؛ انفتاح عمارتها على السماء وليس على الطرق؛ مصممة للمشاة وللنشاطات التجارية والحرفية الصغيرة، أما من حيث الشكل: فهي ذات شكل فريد ليس له أشباه في سائر حضارات العالم وهذا

التفرد لا ينبع فقط من تميز عناصرها التكوينية والتشكيلية (الجامع، المساجد، المدارس، الأسواق، الخانات، الحارات، الحمامات، الأسوار، البوابات،...) بل أيضاً من القدرة على صهر جميع هذه المكونات في بوتقة واحدة ونظام متجانس من العلاقات الوظيفية المتبادلة التي تلبي حاجات المسلمين المتشابكة (الدينية والدنيوية)، وكل ذلك بطريقة بديعة غير استعراضية تنم عن عقلانية وأصالة الثقافة الإسلامية (انظر صورة رقم ٨).

ولقد توقف المد الحضاري لهذه المدن وذلك بتوقف البناء على منوالها وكذلك بتوقف ترميمها بل وهجرها وهدمها، وهي تربو اليوم على أكثر من ١٢٥ مدينة ومواقع إسلامية تاريخية، ومن الأهمية بمكان أن نعلم أن هذا التوقف قد حدث، ليس على أيدي المسلمين بهدف تغيير المدينة أو تحديثها، ولكن حدث عنوةً على أيدي الاستعمار الغربي؟!.. الذي استبدل المدينة الإسلامية الأصيلة بفضاء عمراني مصطنع، ومنزوع المساحة الدينية والتعليمية المعهودة، ويخدم مصالحه من خلال عمل نظام شبكي سطحي وبلا حدود للطرق، حيث يعطي للحركة الآلية الأولوية القصوى ولا يكترث بخصوصية المسلمين وحاجاتهم الدينية والاجتماعية والبيئية، وكذلك يقتلع الهوية ويعجز عن أن يكوّن المدينة البديلة، بل ويجعل التنمية العمرانية، ولأول مرة في التاريخ، عقبة في طريق التنمية الشاملة بسبب أن أسلوبه هذا في التخطيط يهدد الأراضي الزراعية القليلة ويقضي عليها ويجهل التعامل مع الصحراء والتصحر.

أن المدينة الإسلامية قد بنيت على هدي الشريعة الإسلامية الغراء، وبالتالي فإن غياب هذه المدينة يعتبر غياب للوعاء المادي الذي كفل تطبيق الشريعة، وهي ظاهرة اختفاء قسري لصورة الإسلام وشكله، وللمكان الذي نجحت الأمه الإسلامية بالعيش فيه بما يزيد عن الألف سنة، وقد كان تخطيط هذا المكان ومكوناته الحضرية والمعمارية ملبيةً لجميع حاجات المسلمين الدينية والدنيوية، وهو فضاء حضري لم يأتِ مفروضاً على الأمة الإسلامية فرضاً، بل تم إخضاعه لضوابط الشرع والعقيدة ولمئات السنين، فخرج تجربة تخطيطيةً غنية وفريدة تمخض عنها باب من أبواب ألفقه الإسلامي "فقه البنيان"؛ حيث خضع التخطيط والعمارة لنظام شرعي من الأحكام والتوجيهات.

ولقد نجحت هذه التجربة في تحقيق التعايش المثالي بين الإنسان والبنيان بما لا يتناقض مع المعتقد والتفكير، وبغياب هذه المدينة يتحوّل الإسلام إلى دين طقوس وعبادات كسائر الأديان الأخرى، وفي هذا إجحاف ومحاولة تغيير لجوهر هذا الدين الحنيف ورسالته الخالدة، وكذلك يحرم المسلمين من المشاركة والمساهمة في بناء صرح الحضارة الإنسانية، لأنه يمنعهم من مدينتهم التي

هي نتاج دينهم ودليل حضارتهم، وهنا السؤال لماذا يحال بين المسلمين ومدينتهم، وما دام هذا المنع فيه خسارة للمسلمين، فمن الرابح إذن؟.

وليس المقصود، من هذا البحث، العودة للعصور الوسطى أو الحنين للماضي، ولكننا لا نريد أن ننسلخ، كأمة مسلمة، من طبيعتنا لتخلينا عن أسلوبنا التقليدي–التاريخي بالعيش في المدن، وأن نفقد العوامل الحضارية والتخطيطية–الدينية والعمرانية التي أوجدها الإسلام وطورتها المجتمعات الإسلامية خلال قرون عديدة، وذلك تحت ضغط ما يسمى بالعولمة (الحداثة الغربية والتكنولوجيا)، والتي قد تسهل لنا بعض المظاهر المعيشية ولكن على حساب فقداننا لروح الحياة الإسلامية الحقيقية التي تزول حتما بزوال الفضاء العمراني الذي وجد في الأصل لحيازتها وحفظها.

أهمية البحث:

إن العديد من الدراسات التي أجريت على المدينة الإسلامية قد تناولت جوانبها المادية من حيث التعريف بها تخطيطياً ومعمارياً وهذا غالباً أسلوب الباحثين الغربيين والذي يطغى عليه تلبية حاجة الفضول أو الإطراء أو الطعن في أصالة بعض المكونات أو الرغبة السطحية في الاستكشاف أو كذلك وبكل بساطة سرد آراء كبار المستشرقين. ولكن منهم من أبرز الجانب الديني في تأسيس المدينة من أمثال "جانيت أبو لغد" بعد دراستها لنماذج من المدن الإسلامية كالقاهرة وتونس وغيرهما؛ حيث أثبتت أن هذه المدن تسير وفق قانون إسلامي يحدد أشكال الملكيات وحقوق الارتفاق تحديداً واضحاً، وكذلك تحديد علاقة هذه الملكيات بالمرافق العامة، وعلاقة أصحابها بالدولة. ونجد منهم، أيضاً، من ينفي الصلة بين الدين والمدينة نفياً باتاً من أمثال "بلانهول".

أما الباحثين العرب فتغلب عليهم جوانب البحث في المسائل الفقهية والتخطيطية والبيئية لهذه المدينة، على الرغم من أن بعضها لا تخلو من إشارات واضحة للقيمة الدينية (محمد عبد الستار عثمان، جميل عبد القادر أكبر، خالد عزب، يحيى وزيري، عبد الباقي إبراهيم، محمد السيد الوكيل، محمد الكحلوت، هشام جعيط، أحمد فكري، عفيف البهنسي، عبد الجبار ناجي...)، وأخص بالذكر، هنا، جميل أكبر حيث أسهب في الجانب الديني–الشرعي من خلال كتابة النفيس "عمارة الأرض في الإسلام"، وكذلك خالد عزب "فقه العمارة الإسلامية".

أما هذه الدراسة فإن أهميتها، ربما، تكمن في أنها قامت بمحاولة تسليط الضوء على العلاقة بين النظرية والتطبيق في ألفكر التخطيطي في الإسلام، حيث ربطت بين المدينة وفضاءاتها ومبانيها

المتنوعة وبين تعاليم الدين الحنيف، فظهر أنها مدينة وجدت من أجل صناعة بيئة حضرية ملائمة ومتوافقة مع حاجات المسلمين الدنيوية والأخروية، بيئة مألوفة وقريبة ولا يشعر المسلمون فيها بالغربة أو الانفصام في الهوية، أو اصطدام فكرهم مع واقعهم، كما يحدث اليوم، مثلاً، من جراء العيش في بيئات حداثية كالمباني العالية. وهناك أهمية أخرى، تكمن في حاجتنا اليوم إلى الاهتمام بدراسة المدن بشكل عام، حيث إن العالم العربي يتحول إلى مدن فقط وتموت فيه القرى والبوادي، المدن تصبح أخطبوطيه سريعة النمو والانتشار وغالباً على حساب الأراضي الزراعية القليلة، حيث تجاوز سكان المدن أل ٧٠% في عام ٢٠١٧، ففي الماضي كانت المدن تعيش على القرى والبوادي، أما الآن فيحدث العكس تماماً حيث إن القرية والبادية تعيشان على المدينة، والمدينة بدورها تعيش على الخارج، وفي هذا خضوع وتبعية للقوى الاقتصادية العالمية، وهو دافع كبير يحفزنا على أن نعيد حساباتنا مع قضية المدن والتمدن قبل فوات الأوان.

أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بخصائص ومميزات المدينة الإسلامية من أجل إبراز علاقتها بالدين وانبثاقها عنه، وكيف أصبحت صورةً حيّةً ونموذجاً معاشاً للمجتمع المسلم، وحيث إن هذه المدينة قد تم تجاهلها واستثنائها في العصر الحديث وعلى كل الأصعدة، فلا تكاد تجد لها ذكراً في كتب نظريات تخطيط المدن وكأنها غير موجودة، ولكن بالمقابل تجد في تلك الكتب نظريات لم تطبق على أرض الواقع، مجرد نظريات!، وتجد نظريات أخرى اقتبست بالكامل من المدينة الإسلامية (مثال: نظرية وحدة الجوار للمخطط الأمريكي كلارنس بيرري The Neighborhood Unit).. وهذا نهج غير علمي وغير منصف وفيه تهميش صارخ للمدينة التي كان لها السبق في احتضان العلم الحقيقي والعلماء الموسوعيين والدعاة المصلحين، الذين ساهموا في دفع عجلة الحضارة الإنسانية قروناً إلى الأمام، وكذلك كانت ثمرة الحضارة الدينية الوحيدة التي حدثت في التاريخ، ألا وهي الحضارة الإسلامية (هونكه، ٢٠١٣).

سيتم التعرف على هذه المدينة ألفريدة من خلال النقاط التالية:

- التعريف بمفهوم المدن ومعناها ودوافع وجودها ورسالتها، أولاً من زاوية الثقافة الغربية، وذلك عبر طرح آراء ومقولات الجغرافيين والمخططين الغربيين، ومن ثم من زاوية الدين الإسلامي الذي كان السبب في إنشاء المفهوم الشرعي الجديد للمدينة.

- التعريف بخصائص المدينة الإسلامية وإبراز أهم مميزاتها التي لا توجد في أي مدينة أخرى، حيث إنها بيئة حضرية إسلامية خاصة نتجت عن التلاحم بين الإنسان المسلم والعمران والشريعة، تلاحماً أدى إلى أن العيش في بيئات سواها يجعل المسلمين كالغرباء في مدنهم وأوطانهم.
- التعريف بمكونات هذه المدينة، وهي مكونات خدمية منبثقة من تعاليم الدين الحنيف، وكيفية تمثيلها في الواقع؛ فهي تخطط منذ نشأتها لتلبية مطالب الإنسان، وإشباع حاجاته المعنوية والمادية (دين ودنيا)، وهي خدمات تقدم بالمجان طلباً لمرضاة الله جل جلاله، مثل مباني العبادة والتعليم والصحة والمرافق العامة الأخرى، وكذلك التعرف على الطريقة ألفذة في ربط هذه المكونات في بوتقة واحدة متجانسة تحقق من جهة أهداف هذه المدينة ومن جهة أخرى تحقق الترابط والمرونة في الأداء الوظيفي بين بعضها البعض.

منهجية البحث:

اعتمد هذا البحث على المنهج النظري التحليلي القائم على استقراء تخطيط المدن الإسلامية قراءة تقييمية نقدية للواقع الحضري وللعمارة القائمة، والتعرف على مكوناتها المختلفة ومدى مطابقتها لتعاليم الإسلام وشعائره.

مفهوم المدينة بين الإسلام والحضارة الغربية:

المدينة في الحضارة الغربية

لا زالت مدارس الجغرافيا، ومنذ عقود عديدة، تبحث عن معنى مقبول للمدينة بحيث يمكن الإجماع عليه، فعدد السكان كان عاملاً أساسياً للأخذ بعين الاعتبار، مضافاً إليه الجانب الوظيفي والإنشائي والتاريخي للمدن (Abu Hussein, 2005). يعرف راتزل المدينة، في نهاية القرن التاسع عشر، على أنها تجمع سكاني يزيد عن ألفي نسمة يعتاشون من الصناعة والتجارة وليس من الزراعة، في الاتجاه نفسه قام، المؤتمر الأوروبي للإحصاء في براغ (١٩٦٠)، بتعريف سكان المدن على انهم أولئك الأشخاص القاطنون في جماعات لا يقل عددها عن ألفي نسمة، ولكن بشرط، أن الذين يمارسون الزراعة في تلك التجمعات والتي يزيد تعدادها عن عشرة آلاف نسمة يجب أن لا تزيد نسبتهم عن ٢٥% من العدد الإجمالي للسكان، ويوصي المؤتمر عموماً على اعتبار أي تجمع سكاني

يزيد عن عشرة آلاف نسمة بأنه يشكل مدينة (Beaujeu-Garnier & Chabot, 1963) بالتعارض مع هذا التعريف الحسابي والكمي للمدينة، يقول بروديل: "إذا أردنا أن نعرف المدن بناء على تعدادها السكاني فعلينا أن نعلم انه سيكون لدينا مدن قليلة؛ لأنه قبل العام ١٥٠٠م، كانت المدن التي تحتوي على أقل من ألفي نسمة تشكل من ٩٠ إلى ٩٥ بالمئة من المدن المعروفة في أوروبا الغربية.

في هذه الحقبة كانت المدن صغيرة جداً وكانت أشبه إلى تجمعات ريفية منها إلى تجمعات حضرية" (Braudel, 1979) . أما شابو فيبدو أن تعريفة أكثر عمقاً من غيره، يقول: حتى تستطيع التجمعات البشرية أن تستحق هذا التعريف أي أن تسمى مدينة يجب أن تمتلك بالإضافة إلى التعداد السكاني تقاليد تاريخية عريقة، وأيضاً على المدينة أن يكون لها القدرة على جذب عطف الأمير ورعايته.

وبالمحصلة فالمدينة بالنسبة لشابو هي عكس القرية تماماً (Beaujeu-Garnier & Chabot, 1963). هنري بيرين، مؤرخ العصور الوسطى، يقدم تعريفاً قريباً من تعريف شابو ويضيف عليه أن المدينة عبارة عن تجمع ذي شخصية قانونية ولها مؤسسات خاصة بها (Pirenne, 1995). وعلى العكس تماماً، جاكلين بوجو، يؤكد على أن مفهوم المدينة متعدد التعريفات والمعاني وأن تعريفاً واحداً للمدينة يعتبر تبخيساً في حقها، ويقول: "عندما نتكلم عن المدينة أو بشكل أوسع عن التجمعات البشرية الحضرية حسب منظورنا المعاصر يتضح لنا أن مفهوم المدينة ليس واحداً بل يختلف من حقبة إلى حقبة، فمدينة الحاضر ليست كمدينة الماضي.

إن ظاهرة المدينة هي موضوع دائم التجدد، فالمدينة تعتبر تعبيراً مادياً ومعنوياً محدداً لحضارة معينة، وبالتالي لا يمكن أن يكون هناك تعريف واحد للمدينة صالح لكل الأزمان والبلدان" (Beaujeu-Garnier & Chabot, 1963)، أما نيكيتا اليسيف فتقول: "إن الهدف من تخطيط المدن هو إعطاء تعبير مادي للحقيقة الروحانية والمجردة التي تسمى المدينة والتي هي في جوهرها رمز لنظام سياسي واجتماعي وديني" (اليسيف، ١٩٨٣).

المدينة في الإسلام

أما بالنسبة لمعنى المدينة في ألفكر الإسلامي، فإن الدين الحنيف هو الذي انشأ المفهوم الشرعي للمدينة؛ فبينما تقوم سائر الحضارات والدول ببناء المدن والتجمعات العمرانية لأسباب مختلفة ومنها توفير المسكن والعمل، يقدم الإسلام، وبهدي القرآن الكريم والسنة النبوية، أهدافاً أكثر سمواً ولا تنحصر فقط في توفير عدد أكبر من المنازل وألفرص للأجيال القادمة، ومن المهم التنويه هنا إلى أن نظريات تخطيط المدن في العالم الغربي قد ظهرت في ألفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر ومطلع

القرن العشرين، أي بعد ظهور الإسلام بـ ١٣ قرناً، حيث كانت المدن الإسلامية قائمة ومزدهرة وتقدم لساكنيها خدمات ما لم تستطع أن تقدمه مثيلاتها في العالم بأسره (الكحلوت، ٢٠١٢). يؤكد لنا القرآن الكريم أن الغاية من إعمار الأرض وإقامة المجتمعات العمرانية والمدن، هو عبادة الله سبحانه وتعالى وإقامة الصلاة في المقام الأول (وزيري، ٢٠٠٨). وكما جاء في سورة إبراهيم على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام، يقول تعالى: **﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾**(إبراهيم: ٣٧). وبخصوص اتخاذ مكة المكرمة مكاناً للسكن والإقامة، يتضح أن الغرض منها هو إقامه الصلاة أولاً، والصلاة عمود الدين وهي رمز لسائر العبادات ألأخرى، ويأتي بعد ذلك توفير المأوى والأرزاق. كما أشارت آية كريمة أخرى إلى أن أساس التجمع العمراني للمسلمين في المدينة المنورة قد بدأ (ومن أول يوم) ببناء المسجد، حيث يقول تعالى: **﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾**(التوبة: ١٠٨). وهو ما حدث بألفعل بعد هجرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام مباشرة إلى يثرب، فقد كان أول ما فعله صلوات ربي وسلامه عليه هو بناء مسجد قباء ومن ثم مسجده بالمدينة (وزيري، ٢٠٠٨).

ولقد فهم المسلمون الأوائل أن عمارة الأرض وتأسيس المدن والأمصار هو عمل تعبدي خالص، الهدف منه إقامة شرائع الدين، وهذا المعنى العظيم نجده في دعاء إدريس الثاني (١٩٢هـ/٨٠٨م) "اللهم انك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وانما أردت أن تعبد بها ويتلى كتابك، وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك ما بقيت الدنيا..، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير، وأعنهم واكفهم مؤونة أعدائهم وادرر عليهم الأرزاق، واغمد عنهم سيف ألفتنة والشقاق، إنك على كل شيء قدير" حيث قال هذا الدعاء عند قيامه بتأسيس الدولة الإدريسية وذلك ببناء مدينة فاس في المغرب (وزيري، ٢٠٠٨).

وهكذا ومع ظهور الإسلام كقوة سياسية عظمى على خارطة العالم، كان له أثر واضح في نشوء مدن كثيرة أصبحت مراكز جديدة تولت حمل لواء الحضارة، فشهد العالم العربي بذلك انتشاراً للمدن لم يكن معهوداً من قبل (Cuneo, 1986)؛ ففي المغرب العربي، على سبيل المثال، أسس الإسلام ٥٠% من مدنه والتي لا تزال قائمة إلى يوم الناس هذا، يقول بايروخ في هذا الصدد: إن العالم الإسلامي نحو العام ١٠٠٠ للميلاد كان يمتلك تقريباً من ٤٠ إلى ٥٠ مدينة ذات ال ٢٠ ألف

نسمة و يمتلك من ٦ إلى ٨ مدن ذات ال ١٠٠ ألف نسمة، ويضيف أن معدل التمدن (سكنى المدينة) كان يقترب من ال ٣٠%، بالمقابل كان هذا المعدل يصل فقط إلى ٨% في أوروبا (باستثناء روسيا وإسبانيا) (Bairoch, 1988). فالإسلام إذن، ومنذ ولادته، يؤكد على أنه دين التمدن والتحضر.

فالمدن بالنسبة للإسلام هي الأماكن الوحيدة التي يستطيع المسلمون من خلالها الالتزام بتحقيق جميع واجبات الشرع، وبهذا يصبحوا مسلمون حقيقيون (Marcais, 1928)، في أراضي العالم العربي الشاسعة، التمدن هو بديل التبدي وبهذا يظهر جلياً دور المدينة، ولقد كانت الوظائف الدينية والتجارية للمدينة (أي ضرورات الدين والدنيا) هي الدافع الذي حذا بالعرب المسلمين دائماً إلى تأسيس مدن جديدة (Marcais, 1928)، وبعض المستشرقين يضيف أسباباً أخرى عسكرية وسياسية، والأدب العربي غني جداً بالكتب الموسوعية التي تعنى بتاريخ المدن، من أمثال تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وكذلك تاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ القاهرة للجبرتي... هذه الكتب على الرغم من أنها لا تولي كبير عناية بالجانب المعماري والتخطيطي بالمقارنة بالجوانب المتعلقة بالمؤسسات والأعلام إلا أنها توضح العلاقة بين المدينة والدين.

والمدينة لا يمكن أن تكون عبارة عن مكان لتمركز سكان وخدمات فقط، بل مكان قادر على تقديم نوعية حياة على درجة عالية من الرقي، نوعية حياة متقدمة بحيث لا يمكن تصورها في بيئة ريفية أو بدوية، فالمدينة تحتوي على مباني ومؤسسات كبيرة ومهمة قام بتحديدها الفقهاء المسلمون وجعلوا توفرها شرطاً لتأسيس المدن، فالإسلام يؤسس المدن لأهداف سامية وغايات نبيلة، من أجل سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وهي تتعالى على أهداف قد تكون ذات طبيعة استيطانية أو اقتصادية لصالح رأس المال أو ما شابه، نعم لقد وجدت على خطوط القوافل وبالقرب من الأنهار ولكن أولاً لتحقيق الاتصال والربط بين الأطراف المترامية للعالم الإسلامي، وثانياً للعمل على نجاحها وازدهارها (عثمان، ١٩٨٨)، فالعالم، في الثقافة الإسلامية، ما هو إلا شبكة من المدن المنتشرة، كما النجوم في السماء، والمتصلة مع بعضها البعض بخطوط القوافل العالمية والعابرة للقارات (De Planhol, 1968).

المدينة الإسلامية وتجسيد الدين

إن الإسلام ونظمه وأحكامه هو المحور الأول الذي تدور حوله حياة المدينة بكل تفاصيلها وجزئياتها وبجوانبها المختلفة الدينية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية (غرايبة، ٢٠١٥).

والإسلام يسعى، من خلال مبادئه وتشريعاته، إلى تحقيق سعادة الإنسان المسلم وفوزه في الدنيا والآخرة، كما ذكر آنفاً، وهي خاصيته الكبرى التي تميزه عن سائر الأديان والمعتقدات الأخرى (بيجوفيتش، ٢٠١٠)، أي أنه يعتني بأمور الدنيا والآخرة على حد سواء (المودودي، ١٩٦١)، ويظهر ذلك جلياً وعملياً عند الاطلاع على فضاء حضري قائم يجمع بين لوازم الدين والدنيا، وهذا الفضاء هو المدينة الإسلامية، حيث يشترك فيه كل من التخطيط والعمارة من جهة والشريعة الإسلامية من جهة أخرى لتحقيق هذا الهدف، فنجد المباني الدينية والمباني الخدمية الدنيوية يتمازجان ويتقاطعان ويتوزعان على جميع النواحي، ويتم تقديمهما كبوتقة واحدة تخدم جزئي حياة الفرد المسلم الخاصة والعامة، ونرى كذلك أن المباني الدينية تؤدي خدمات دنيوية، وأيضاً المباني الدنيوية تؤدي خدمات دينية.

وعند تحليل الهيكل التخطيطي للمدينة العربية الإسلامية نجد أنه مصمم بالأساس لإيواء الأمة المسلمة، وتسهيل عيشها بما يتوافق مع هدي الدين الحنيف ومبادئه، فنرى المبادئ والقيم الإسلامية تتحول إلى خدمات لها حدود وحرمات متفاوتة في مستوى التدرج من العام إلى الخاص وبالعكس، ونقرأ ذلك في أجزائها (خططها) ذات الوظائف المتنوعة وفي مستويات شوارعها وطرقاتها وفي تخصص أسواقها وكذلك في مبانيها العامة والخاصة، ففكرة الأمة الإسلامية ذات الجسد الواحد، والمرابطة على حدود الله وحرماته، والتي يسعى الإسلام إلى تحقيقها، تظهر للعيان من خلال بناء حضري على هيئة كتلة عمرانية متراصة وملتحمة، ليس فيها أي فراغ سوى فراغات الأحواش والطرق (Fusaro, 1984) وهذا لا يوجد له شبيه في تاريخ تخطيط المدن ما قبل الإسلام، وحيث يمكن اعتباره تحقيقاً مباشراً لقول الله تعالى في وصف هذه الأمة: {كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ } (الصف: ٤). وأيضاً لقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن لِلْمؤْمن كالبُنْيان يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضا، ثُمَّ شَبّك بين أَصابعه)) (البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، ح ٤٨١؛ مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح٢٥٨٥) (انظر صورة رقم ٦ و ٧).

وفيما يلي عرض وتفصيل لأجزاء هذه المدينة ومكوناتها، ودرجة مطابقتها مع مبادئ الدين، وكيف قامت هذه المكونات بخدمته وتحقيقه على الأرض. ولنبدأ من سبب وجودها وتأسيسها:

نشأة المدينة الإسلامية

لقد تعددت الأسباب التي أنشئت من أجلها المدن الإسلامية، وكان إنشائها بمثابة إنشاء للدولة الإسلامية نفسها، وذلك لاستقرار الحكم فيها، فمن هذه المدن ما بدأ على هيئة معسكرات،

ثم تطور على هيئة مدينة كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، ومنها ما اتخذ لأغراض إدارية كواسط ومنها ما أنشئ كعواصم أو حواضر كبغداد والقاهرة وفاس وغيرها،ومنها ما كان في بدايته مناطق ارتكاز تحصينيه للدفاع ومع مرور الزمن غلب عليها الطابع المدني وتحولت إلى مدن كالرباط والموناستير، ومنها ما نشأ مرتبطاً بعوامل دينية كالنجف وكربلاء والكاظمية وغيرها (Lassner, 1970)، وعلى الرغم من تأثر التخطيط بهذه العوامل المختلفة تأثراً واضحاً ولا سيما في مراحل النشأة الأولى، إلا أنه بصفة عامة يقوم على محاور أساسية توجهه توجيهاً إسلامياً واضحاً صاغ المدينة الإسلامية صياغة مميزة، وجعلها على الرغم من اختلاف أقاليمها وعصورها وأسباب تأسيسها تتسم بسمات تخطيطية ودينية عامة واحدة (جعيط، ١٩٨٦).

وهناك شروط عامة يجب توفرها من أجل اختيار مواقع المدن وتأسيسها، قد صاغها الفقهاء والجغرافيون المسلمون، وقد أجملها ابن أبي الربيع في ستة نقاط، وذلك في كتابة الموسوعي "سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال"، وهي الشروط نفسها التي يذكرها – عادة – باقي الجغرافيين والمؤرخين العرب، وهي: (سعة المياه المستعذبة، وإمكان الميرة المستمدة، واعتدال المكان وجودة الهواء، والقرب من المرعى والإحتطاب، وتحصين منازلها من الأعداء، وأن يحيط بها سور يعين أهلها) (غرايبة، ٢٠١٥) ومنهم ابن خلدون وابن الأزرق – في القرن التاسع الهجري– اللذان أشارا إلى هذه الشروط فذكرا أن ما تجب مراعاته في أوضاع المدن أصلان مهمان "دفع المضار وجلب المنافع" وشرحا كل أصل منهما بما يتضمن هذه الشروط شرحاً مستفيداً من التجربة التي تبلورت بعد إنشاء العديد من المدن الإسلامية طيلة هذه القرون، وجميع هذه المصادر اعتبرت "تكثير العمارة" من أركان الملك، بل هو عند ابن الأزرق الركن الخامس بعد: تنصيب الوزير؛ إقامة الشريعة؛ إعداد الجند؛ حفظ المال (ابن الأزرق، ١٩٧٧). وجميعها شروط تؤسس لبقاء المدن وازدهارها، وكذلك تؤمن الحاجات الحيوية للسكان حتى يعيشوا في رغد وطمأنينة. وهذا ما يأمر به الدين الحنيف ويجعله من شروط إعمار الأرض والاستخلاف فيها. وورد الحث على إعمار الأرض في آيات كريمة كثيرة، حيث يقول عز من قائل: **﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾**(هود: ٦١)؛ **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾**(يونس: ١٤)؛ **﴿وَعَدَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** (النور: ٥٥). وهناك، في

فقه البنيان والعمارة في الإسلام، اهتمام كبير بالإنسان أولًا وبإعمار نفسه وتزكيتها ثانيًا حتى يصل آخراً إلى إعمار الكون من حوله. فالله جل جلاله خلق الإنسان وأوجده في هذه الحياة الدنيا لتحقيق أمور ثلاثة تمثل وظيفته على الأرض، وهي: عبادة الله؛ عمارة الأرض؛ تزكية النفس (ابن خلدون، ١٩٧٩). وجميعها وظائف موكل بحملها الإنسان المسلم بناءً على ما جاء في القرآن العظيم: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**(الذاريات: ٥٦)؛ **﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أكثر مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**(الروم: ٣٠)؛ **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾**(فصلت: ٣٣). وبالمقابل غلّظ القرآن الكريم وشدد من عقوبة الفساد في الأرض وحذّر منها مما يدل، أيضاً، على أهمية الإعمار: **﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**(المائدة: ٣٣). واذا كانت المدينة الإسلامية أداة حضارية للدعوة إلى الله، كما ذكر آنفاً، فلقد جاءت الآيات تترا للحث على ذلك: **﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾**(النحل: ١٢٥). إذن ففي بناء هذه المدينة امتثال لأوامر الله جل جلاله واقتداءً بهدي نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم حيث جاءت السنة النبوية المطهرة داعيةً إلى إعمار الأرض وحسن الاستخلاف فيها، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم ((إن ما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علم علمه ونشره، وولد صالح تركه، أو مصحف ورثه، أو مسجد بناه، أو بيت لابن السبيل بناه، أو نهر أجراه، أو صدقة أخرجها في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)) "سنن ابن ماجة، كتاب المقدمة". ويقول الشعراوي في شرح هذا الحديث الشريف: (... الأرض من طبيعتها ثبات قشرتها حتى يستطيع الناس أن يعيشوا عليها ويبنوا مدنهم ومساكنهم ويمارسوا حياتهم، ولو أن قشرة الأرض لم تكن ثابتة لاستحالت الحياة عليها ولاستحالت عمارتها، والله سبحانه وتعالى يريد منا إعمار الأرض ولذلك جعل قشرتها ثابتة صلبة) (وزيري، ١٩٩٠).

<u>الهيكل التخطيطي ومكوناته</u>

لقد هدف، تخطيط المدينة الإسلامية، إلى تحقيق غايات المجتمع الفردية والجماعية المادية منها والروحية انطلاقا من القيم والمبادئ الإسلامية، فبرز إلى حيز الوجود التكوين المادي للمدينة

الإسلامية، والذي تحكمه قوانين إسلامية خالصة تنظم عناصره ومكوناته تنظيماً خاصاً متميزاً، صاغ في النهاية هذه الهيئة الواحدة التي نراها في جميع المدن الإسلامية، فيخط المسجد الجامع في المركز، لما له من مكانة عظيمة باعتباره مصدر التعاليم الإسلامية وملتقى الحاكم بالرعية؛ حيث يتبلور حوله التكوين الطبيعي للمدينة، وهو مركزاً للنشاطات الثقافية والاجتماعية والسياسية، ومن ثم تلتف حوله الأسواق والحوانيت، وتنطلق منه الشوارع الرئيسية والتي تصل بين أبواب المدينة وتمر بالضرورة به وتؤدي إليه، ومن ثم تتوزع على هذه الشبكة الرئيسية مباني الخدمات العامة: المدارس، التكايا، الزوايا، الكتاتيب، الأسبلة، الأسواق (الخانات والوكالات والقيصيريات)، الحمامات، البيمارستانات (المراكز الصحية) (انظر صورة رقم ٨). وتشكل هذه الشبكة، كذلك، حدود الأحياء والحارات (الخطط) التي تحتوي على المنازل والبيوت.

هذا الهيكل التخطيطي يعمل بوضوح على تجميع السكان على مصالحهم المشتركة، من خلال جذبهم إلى مركز حضري ديني تعليمي ثقافي تجاري قوي؛ فهو يجمع ولا يفرق ويحمي المجتمع من التفكك الذي يحدث عادة عند تضخم المدن، فيقوم باستقطاب السكان في أحياء غنية بالخدمات وفرص العمل (Fusaro, 1984) (انظر صورة رقم ٩). ومن رحم هذا الهدف التخطيطي السامي يولد البناء المادي للامة المسلمة الواحدة المتعاضدة والمتكاتفة، وهو امتثال واضح لتعاليم الدين الحنيف وشريعته وقرآنه الذي وصف تراص وتلاحم هذه الأمة وصفاً واضحاً جلياً في غير ذي موضع، فقال تعالى: {إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّـةً وَاحِـدَةً وَأَنَـا رَبُّكُـمْ فَاعْبُـدُونِ } (الانبياء: ٩٢)؛ { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّـاسِ } (آل عمران: ١١٠)؛ {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} (آل عمران: ١٠٣). وكما جاء أيضاً في السنة النبوية المطهرة، فعن عرفجة رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من أتاكم، وأمركُمُ جميعٌ على رجلٍ واحدٍ، يُريدُ أن يَشُقَّ عصاكم، أو يُفَرِّقَ جماعتكُم، فاقتلوه)) (مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، ح ١٨٥٢).. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يد الله مع الجماعة)) رواه الترمذي. وفي رواية عن أبي هريرة – رضي الله عنه– أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من خرج من الطاعة وفارقَ الجماعةَ فمات، مات ميتةً جاهليّة)) (مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور ألفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ح ١٨٤٨).

ولنبدأ بعرض مكونات هذه المدينة وشرح علاقتها بتطبيق الدين على أرض الواقع، وبالتالي كيفية قيامها بخدمة المجتمع المسلم وبنائه.

المسجد: المسجد الجامع وهو أول ما يختط من التكوينات المعمارية، وبشكل أهم ما يمكن أن يرى من خلال محاور الحركة الرئيسية (Fusaro, 1984). وهو متفرد لكونه أكبر مبنى للعبادة ويعتبر من وجهة نظر فقهية من أهم الميزات الحضرية للمدينة الإسلامية (انظر صورة رقم ١٠). ويكون قريباً من كل موضع في المدينة، فيسهل الوصول إليه من جميع الجهات لأداء الصلاة الجامعة، مما تتطلب أن يتم تخطيط الشوارع الرئيسية كلها متوجهةً إليه (انظر صورة رقم ٧). ولقد قام الفقهاء المسلمون بتحديد المعايير الأساسية التي يجب أن تتوفر في تجمع حضري ما حتى يستحق أن يسمى "مدينة"، وهي كالتالي وحسب الأهمية: وجود مسجد جامع فسيح، ويسمى أيضاً مسجد الجمعة أو المسجد الكبير أو المنبر؛ وجود حمام؛ وجود سوق؛ وجود أسوار؛ وأخيراً، وبداية من القرن الحادي عشر للميلاد، وجود مدرسة (Marcais, 1928). وبما أن المسجد يجمع الناس خمس مرات كل يوم، فإنه يصبح مغناطيساً اجتماعياً تلتف حوله جميع النشاطات التجاريّة والثقافيّة والتعليميّة، فيشكل قلب المدينة النابض والمفعم بالخدمات والحياة (أنظر صورة رقم ١١). وهو جدير بكل هذه الأهمية والمركزية والمساحة (انظر صورة رقم ١٢) كيف لا وفيه تؤدى أهم وظيفة خلق من أجلها الإنسان ألا وهي العبادة وأداء الصلاة المكتوبة في جماعة كما أمر الله جل جلاله وشرع دينه الحنيف، فهي لب الدين وأساسه وركن عظيم من أركانه. والآيات القرآنية التي تنعت المؤمنين بـ "العباد" لكثرة أدائهم للعبادات ولطاعتهم لخالقهم، والتي تحض على إقامة الصلاة لا تكاد تقع على حصر، ومنها قوله تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**(الذاريات: ٥٦)؛ **﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾**(النساء: ١٠٣)؛ **﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾**(البقرة: ٤٣)؛ **﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾**(طه: ١٤)؛ **﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**(الروم: ٣١).

والسنة المطهرة أكدت، في أحاديث عدة، على أن في أداء الصلاة أو عدم أدائها يكمن الفرق بين المسلم والكافر، فعن بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر" (رواه الخمسة أحمد في المسند، ٣٨/٢٠، ح ٢٢٩٣٧) قال الأرنؤوط: إسناده قوي من أجل حسين بن واقد المروزي. والترمذي في السنن، أبواب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، ح ٢٦٢١، قال الترمذي: وفي الباب عن أنس، وابن عباس: «هذا حديث حسن صحيح غريب». وابن ماجه، في السنن، كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، ح ١٠٧٩،

النسائي: في السنن، كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، ح ٤٦٣، وصححه النسائي والحافظ العراقي)؛ وعن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة)) (مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، ح ٨٢)؛ وأيضاً عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((مَن تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ فأسْبَغَ الوُضُوءَ، ثُمَّ مَشَى إلى الصَّلَاةِ المَكْتُوبَةِ، فَصَلَّاهَا مع النَّاسِ، أَوْ مع الجَمَاعَةِ، أَوْ في المَسْجِدِ غَفَرَ اللَّهُ له ذُنُوبَهُ)) (مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، ح ٢٣٢؛ وعن أَبي هُريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((الصَّلواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إِلى الجُمُعَةِ، كفَّارةٌ لِمَا بَيْنهُنَّ، مَا لَمْ تُغش الكبَائِر)) (مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، ح ٢٣٣).

وهكذا، وامتثالاً لأوامر الله جل جلاله واقتداءً بهدي نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، ملئت المدن الإسلامية بالمساجد، فوجدت على ثلاثة أنواع: المسجد الجامع في مركز المدينة، كما ذكر؛ مساجد الخمس وهي موجودة في الحارات والأحياء السكنية والحرفية؛ ومصلى العيد ويوجد خارج أسوار المدينة ويستعمل في صلاة العيدين والاستسقاء والخوف، والمساجد تعتبر الميزة الكبرى للمدن العربية، حيث إنها المدن الوحيدة في العالم التي يسمع فيها صوت الأذان، وقد بلغت المساجد من الكثرة في بعض المدن أن القاهرة سميت بمدينة الألف مئذنة (فكري، ٢٠٠٨).

<u>المدارس والخوانك والتكايا والكتاتيب</u>: إن المساحة المخصصة للتعليم، في المدينة الإسلامية، كبيرة جداً، ولا تشبهها مساحة في سائر مدن الحضارات القديمة؛ حيث كان العلم محتكراً على مستوى الكهنة وموجود فقط ضمن دائرة المعابد المنتشرة هنا وهناك، وهذه الظاهرة الفريدة لفتت انتباه كثير من المستشرقين، فلقد رأوها كمدينة للعلم والعلماء (ناجي، ١٩٨٠). والمدارس في المدينة الإسلامية (وهي كالجامعات اليوم) تشتمل في معظم الأحيان صحناً مكشوفاً تحيط به أربعة إيوانات (جمع إيوان، والإيوان بناء مغلق من ثلاثة جهات ومفتوح من جهة واحدة) في شكل متعامد يشبه الصليب، (انظر صورة رقم ١٣) لكي تهيء أماكن لطلاب المذاهب الفقهية الأربعة (الحنفي، المالكي، الشافعي، الحنبلي)، وكانت الأركان الواقعة بين ضلعي هذا الشكل الصليبي تشتمل على المدخل، وفيها سلم يوصل إلى الطوابق العلوية ومساكن وملحقات للأساتذة والطلبة (العمري، النعمان، ٢٠١٣).

أما الخوانك جمع خانكاه فهي كلمة فارسية تطلق على البيوت التي شيدت في بعض ديار الإسلام منذ القرن الخامس الهجري للتعلم ولإيواء الصوفية الذين يختلون لعبادة الله تعالى، ومن

أسمائها أيضاً الزاوية وهي منتشرة في شمال أفريقيا (ثويني، ٢٠٠٥). ثم أنشئت في عهد الأتراك العثمانيين التكايا جمع تكية، أيضاً، للتعلم ولإيواء الدراويش المنقطعين للنسك والعبادة، أما الكتاتيب فهي دور تعليم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وهذه المباني، على اختلاف عمارتها وأسلوب إدارتها ونوعية روادها، إلا أنها كانت مباني تعليمية منتشرة في كل أرجاء المدينة وفي أحيائها ومناطقها الحرفية، وكانت تحمل أسماء مؤسسيها أو الحي الموجودة فيه أو اسم الحرفة التي تنتمي إلى منطقتها، كمدرسة العطارين والوراقين والنحاسين وما إلى ذلك (الوكيل، ١٩٨٢). ولا يخفى على أحد أهمية العلم والتعلم في الدين الإسلامي القويم، وأن الأمة الإسلامية سميت بأمة اقرأ، ولقد أقسم الخالق جل جلاله بالقلم وهو آلة العلم، فقال تعالى: (ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) "القلم، آية: ١". فهذه الأمة مكلفة شرعاً بتبليغ رسالة الإسلام إلى العالم أجمع، لذلك عليها أن تتعلم الدين الإسلامي جيداً، وأن تكون منه على بصيرة حتى تستطيع إيصاله إلى الأمم الأخرى صحيحاً وغير محرف، وذلك امتثالاً لأوامر الله تعالى الذي أسند إليها هذه المهمة العظيمة قائلاً: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} (يوسف: ١٠٨). ولهذا أتت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحض بشدة على العلم والتعلم، فقال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } (الزمر: ٩)؛ {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا }(طه: ١١٤)؛ {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } (النحل: ٤٣). وقال الحافظ المنذري في باب الترغيب في الرحلة في طلب العلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)) (مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ح ٢٦٩٩)؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)) (ابن ماجه، أبواب السنة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ح ٢٢٤، والطبراني، ٧/١، ح ٩)؛ وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم)) (الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل، ح ٢٣٢٢). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

<u>الحمامات، الأسبلة، المواضئ (جمع ميضأة):</u> أقام الخلفاء ونظام الوقف المرافق العامة والحمامات والمواضئ ومطاعم الفقراء وخانات المسافرين على الطرق العامة ولاسيما طرق القوافل التجارية العالمية، وطرق الحج التراثية، وقاموا بإنشاء بيوت اليتامى والأرامل والفقراء وأبناء السبيل، وأقيمت

الأسبلة في الطرق لتقديم مياه الشرب للمارة وحيواناتهم (انظر صورة رقم ١٤)، فالإسلام الذي تميز باستخدام الماء دينياً ووظيفياً، قام بفرض الاغتسال والطهارة والوضوء وجعلها شرطاً واجباً لأداء العبادات، وانتشرت الحمامات مع انتشار الإسلام وذلك لعدم قدرة العامة جميعاً على امتلاك حمام خاص في منازلهم، وأصبحت الحمامات مقياساً لمدى تحضر مدينة ما أو تخلفها، وكانت مصممة بمقاييس إنسانية متواضعة ومحتشمة ومن أجل تقديم خدمة الاستحمام وكذلك تقديم مكان خاص بمجتمع الرجال ومجتمع النساء في الأحياء السكنية كمتنفس اجتماعي، وكانت تقسم إلى ثلاثة أجزاء حسب درجة الحرارة (البراني "الجاف" والوسطاني "الرطب" والجواني "الساخن") (انظر صورة رقم ١٥)، كما كانت مزينة بمختلف الزخارف والنقوش النباتية والهندسية (عثمان، ١٩٨٨).

أما الأسبلة (جمع سبيل) (انظر صورة رقم ١٤) فكانت منتشرة بكثرة في جميع دروب ومناهج المدينة، والسبب الرئيسي في إقامتها هو الوازع الديني للحصول على الثواب في الآخرة، أو ابتغاء طلب الدعاء والترحم على أرواح المتوفين، إضافة إلى حاجة الإنسان والحيوان للشرب عند اشتداد الحر وتعاظم القيظ، والمواضئ (جمع ميضأة) فهي أماكن للغسيل والتطهر، أي للقيام بالوضوء الذي لا تصح الصلاة دونة، وفي حالة انعدام وجود الماء فيناب عنه بالتيمم، وكانت موجوده حول المساجد والمدارس ودور العلم المختلفة وفي داخلها، وغالباً ما تأتي على هيئة قباب جميلة يجلس تحتها للوضوء (انظر صورة رقم ١٦)، أو فسقية فسيحة يؤخذ الماء من حولها، ويقول مؤرخ الأمراض المعدية الفرنسي دانييل بانزاك: إن هذه الطقوس التطهرية– التعبدية على بساطتها قد حمت المسلمين، في العصر العثماني، من انتشار الأمراض المعدية والطاعون والكوليرا (Panzac, 1985)، وجميع أمهات كتب الفقه الإسلامي تبدأ بباب الطهارة وتقدمه على باب الصلاة، وذلك لأن الطهارة والنظافة شرط أساسي لأداء العبادات في الإسلام، وفي وجود مثل هذه الخدمات الجليلة في المدينة الإسلامية (والتي لا توجد اليوم في كثير من المدن التي تدعي التحضر) امتثال لأوامر الله جل جلاله وتحقيق لمبادئ الإسلام، ومساعدة للمسلمين على أداء شعائرهم التعبدية بكل راحة ويسر، فلقد ذكر القرآن الكريم في غير ذي موضع أهمية النظافة والطهارة والحث عليها واعتبارها واجب ديني وقربى إلى الله جل جلاله، حيث يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾**(المائدة: ٦)؛ **﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾**(البقرة: ٢٢٢)؛ **﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾**(المدثر: ٤). واستفاض في سنة النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بالطهارة والحث عليها قولاً وعملاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((الطهور شطر

الإيمان)) (مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، ح ٢٢٣)؛ وقال صلى الله عليه وسلم ((إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده أو أين كانت تطوف يده)) (الألباني في صحيح أبي داوود، كتاب الطهارة، باب في الرجل يدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها، ح ١٠٥)؛ وقال صلى الله عليه وسلم ((لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه)) (البخاري، كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، ح ٢٣٩)؛ وقال صلى الله عليه وسلم ((طهروا أفنيتكم، فإن اليهود لا تطهر أفنيتها)) (الطبراني، ٢٣١/٤، ح ٤٠٥٧). تفرد به زيد بن أخزم.

البيمارستانات: أي المستشفيات الإسلامية، حيث كانت تقدم الخدمة المجانية من العلاج والدواء والغذاء ومساعدة أسر المرضى المعوزين. وكان أول مستشفى في الإسلام قد بناه الوليد بن عبد الملك سنة (٨٧هـ/٧٠٦م) في دمشق، وبنى بعد ذلك بسنة أول مستشفى تخصصي في التاريخ لمرضى الجذام، في حين أن أوروبا كانت تنظر إلى الجذام على أنه غضب من الله يستحق الإنسان عليه العقاب، حتى أصدر الملك فيليب أمره سنة ١٣١٣م بحرق جميع المجذومين في النار، وإن العالم بأسره مدين للمسلمين بإيجاد المشافي المنظمة، فقد ذكر الإنجليزي (إل غوود) في كتابه "تاريخ الطب" أنه يرجع الفضل في نظام المستشفيات بأكمله إلى المسلمين، وقال "إن النظام العربي للبيمارستانات يمكن أن يشاهد عملياً في أي مشفى كبير في لندن هذه الأيام" (بك، ١٩٨١)، ومن أشهر البيمارستانات تلك التي وصفها الرحالة الأندلسي ابن جبير كمشفى الناصر قلاوون بالقاهرة والنوري بدمشق والعضدي ببغداد، حيث قال إنه رأى فيها من "الطنافس والنفائس" ما لم يجده في قصور الأمراء (بك، ١٩٨١). ومن الشائع المعروف أن كتاب القانون في الطب لابن سينا وكذلك كتاب الحاوي لأبو بكر الرازي قد تم تدريسهما، باللغة العربية ولغاية القرن السابع عشر، في جامعات أوروبا (الحسني، ٢٠١١)، (انظر صورة رقم ١٧).

والحقيقة أن وجود المستشفيات وانتشارها في المدن الإسلامية، وبالذات في عصور كان الطب فيها مجهولاً من الناحية التطبيقية، فيه إحسان كبير وعناية بالإنسان غير مسبوقة، وفيها كذلك امتثال لأوامر الله جل جلاله وتقرباً إليه وتطبيق لشريعته السمحة، فالعناية بصحة المسلمين وسلامتهم هي المقصد الثاني من مقاصد الشريعة الخمس (حفظ النفس)، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تصب في هذا المعنى السامي العظيم وتحث عليه، فقال تعالى: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ**

فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(المائدة: ٣٢)؛ **﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾**(البقرة: ١٩٥)؛ **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾**(الإسراء: ٧٠). وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه)) (الترمذي أبواب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، ح ٢٣٨٠)؛ وقال صلى الله عليه وسلم ((مَن أصبَحَ مُعافًى في جَسَدِه، آمِنًا في سِرْبِه، عِندَه قُوتُ يَومِه؛ فكأنَّما حِيزَت له الدُّنيا)) (الترمذي، أبواب الزهد، ح ٢٣٤٦)؛ وقال صلى الله عليه وسلم ((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ)) (مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ح ٢٦٦٤).

<u>الأسواق والخانات والبازارات</u>: السوق عبارة عن مجموعة الدكاكين والحوانيت التي تلتف حول المسجد الجامع، ومن هنا سميت هذه المساجد بأسواق الدنيا والآخرة، وكذلك تتوزع على أطراف المناهج وبعض الدروب، وتتجمع في مناطق محددة (تربيعات) حيث تشكل ما يسمى بالبازارات أو الخانات أو القيصريات، ومن الأسواق العربية اقتبس الأوروبيون فكرة المراكز التجارية (المولات)، وهذه الأسواق قد تكون مكشوفة، إلا أنها غالباً ما تكون مسقفة إما بالأقبية والعقود الحجرية كما في بلاد الشام، أو باستخدام القصب كما في المغرب العربي ومناطق أخرى.

أمَّا الدكاكين غالباً ما تكون صغيرة الحجم وتمتلك نشاطاً تجارياً أو حرفياً أو الاثنين معاً، وتكون موزعةً في مجموعات حسب التخصص ونوع السلعة، وفي الغالب يخصص ريع إيجار هذه الدكاكين لنظام الوقف، ويلاحظ أن القيمة المادية والمعنوية للمنتوجات التي تباع بالقرب من المسجد الجامع أعلى من المنتوجات التي تباع بعيداً عنه، وإنشاء سوق المدينة المنورة، كان العمل الثاني الذي قام به النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – بعد أن قام أولاً بتأسيس مسجده، ولهذا لاحظ المستشرقون أن المدن الإسلامية ذات طابع تجاري بارز، وكانت الأسواق، إلى جانب كونها مراكز تبادل السلع، مراكز لتبادل الأفكار والأقاويل لما يحدث من مناقشات في أمور السياسة والاقتصاد وغيرها مما يبرز أهميتها أيضاً كمراكز اتصال وتواصل، وكذلك إنشاء الأسواق في المدن الإسلامية كان من محاور النهضة بعمرانها، فهو من متطلبات الجماعة الإسلامية وهو أحد الركائز الاقتصادية؛ لأن المدن تتفاضل بالأسواق وكثرة الأرزاق، ومن ثم فإن الازدهار الاقتصادي ينعكس على ازدهار الأسواق وعمارتها (عثمان، ١٩٨٨). وأتت الأسواق في المدن الإسلامية بمظهر معماري جليل، وامتازت بمساحاتها الكبيرة وأقبيتها العظيمة وعقودها الضخمة، ولا تزال في كثير من المدن مزاراً مهماً للسياح، ولقد

أتت بهذا الشكل المهيب لأهميتها القصوى ضمن تعاليم الدين الحنيف الذي يحث على العمل وعلى إعمار الأرض وبذل الجهد والمثابرة وينهى عن الكسل والتواكل.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة جداً في هذه المعاني والأهداف (انظر صورة رقم ١٨)، حيث يقول تعالى: **﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**(التوبة: ١٠٥)؛ **﴿أَنِ اصْنَعِ أَلفُلْكَ﴾** (المؤمنون: ٢٧)؛ **﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾** (سبأ: ١١). وكما جاء أيضاً في السنة النبوية المطهرة، حيث يقول صلى الله عليه وسلم: ((احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزنَّ)) (مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ح ٢٦٦٤)؛ وقال صلى الله عليه وسلم ((ما أكل العبد طعاماً أحب إلى الله من كدِّ يَدِهِ ومن بات كالاً من عمله بات مغفوراً له)) (أحمد، ٢٨/ ٤١٨، ح ١٧١٨١). صحيح وضعيف الجامع الصغير؛ وقال صلى الله عليه وسلم ((لأَن يأخذ أحدكم أُحبُلَهُ ثم يأتي الجبل، فيأتي بِحُزْمَة من حطب على ظهره فيبيعها، فَيَكُفَّ الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس، أعْطَوه أو مَنَعُوه)) (البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ح ١٤٧٠)؛ وقال صلى الله عليه وسلم ((إذا قامت الساعةُ وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها)) (أحمد، ٢٠/٢٥١، ح ١٢٩٠٢).

<u>البيوت</u>: وللبيوت، في المدينة الإسلامية، أهمية خاصة، فهي تأتي بعيدة وملتفة ومتراصة داخل الأحياء، وليس من السهل الوصول إليها إلا بعد تدرج طويل في مستوى خصوصية الطرق من العام (الشارع) إلى شبه العام (الدرب) فشبه الخاص (الزقاق) ثم الخاص (الدهليز) (انظر صورة رقم ٦ و ١٩). أما باحة الدار (أي الصحن السماوي المكشوف) فهي تمثل مكان لقاء أفراد الأسرة واجتماعهم. فتصميم الدار يعمل على جمع الأسرة وتألفها، وفضاءات المنزل تلتف حول ألفناء كما يلتف الأهل حول المائدة. وسمي البيت داراً لأن مرافقه تدور بساكنيه من كل الجهات، وسمي كذلك سكناً من السكينة. وهي بيوت متزاحمة (كتزاحم المصلين في صلاة الجماعة)، حيث تعطي ظهرها للخارج الملوث والمتطفل وتنفتح على ألفناء الداخلي المستور والهادئ والنظيف (القحطاني، ٢٠٠٩) (انظر صورة رقم ١٩). وهذا التصميم أتى ملائماً لتعاليم الدين الحنيف وللظروف المناخية، فحرمة الدار مكفولة، ومن بظاهر الدار لا يستطيع رؤية من بداخلها، بالإضافة إلى وجود عناصر لحماية الفتحات من الرؤية من الخارج كالمشربيات والمظلات المعلقة، وكان في معظم البيوت فسقية وحديقة وملقف لجلب الهواء النقي وسلسبيل ماء يعمل على خفض درجة الحرارة في الصيف.

ولقد حددت التعاليم الإسلامية نظام الحياة الأسرية بما يحفظ الحرمات والعرض، وأصدر الفقهاء أحكامهم التي تحافظ على التستر والاحتشام، وطبقها القضاة ولم يتهاونوا في عقوبة من يكشف عورات المنازل (عثمان، ١٩٨٨). إن هذه البيوت بهذه الصورة المحفوظة في كنف المدينة الإسلامية وبهذه الحرمة والعناية، قد أتت ملبية لنظرة الدين الحنيف للأسرة المسلمة وأهميتها في بناء المجتمع، ولقد تمنن المولى جل جلاله على الإنسان بنعمة المأوى والمسكن فقال تعالى: **﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾**(النحل: ٨٠). وتكلم القرآن العظيم كذلك عن حرمة البيوت وخصوصيتها، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا} (النور: ٢٧)، أما الاستقرار الأسري، فهو مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، وتم ذكره في القرآن الكريم مرات عديدة، منها قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾**(الأعراف: ١٨٩)، وهناك آيات كثيرة اخرى تدعو إلى بناء المجتمع الإسلامي القويم، منها قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾**(الحجرات: ١٣). والسنة النبوية كذلك دعت إلى بناء المجتمع بناءً صحيحاً متيناً فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)) (الترمذي، أبواب المناقب، باب في فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ح ٣٨٩٥)؛ وقال صلى الله عليه وسلم: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ بِالْحُمَّى، وَالسَّهَرِ)) (مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح ٢٥٨٥)؛ وقال صلى الله عليه وسلم: ((كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته،...، والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسئولة عن رعيتها،...الحديث) (البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب: العبد راع في مال سيده، ولا يعمل إلا بإذنه، ح ٢٤٠٩)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، ح ١٨٢٩) متفق عليه.

الخاتمة:

مما تقدم اتضح أن للإسلام مدينة خاصة به، مكونة من فضاءات تترجم أوامر الله جل جلاله ونواهيه، وتحولها إلى واقع مبني، صنعها هذا الدين الحنيف على مقياسه وحسب نظرته للحياة وطريقته الشرعية في أعمار الأرض، وان هذه المدينة أصبحت بمكانة اللباس أو البيت الكبير للأمة الإسلامية

الواحدة، وشكلت عنوانها وهويتها وكانت وعاءً حافظاً لها لمئات السنين، فقد قامت بجمع الناس على حاجاتهم الدنيوية والأخروية وبما لا يتعارض مع أهداف الدين، وتجسيداً للشريعة الإسلامية ومغزاها من التجمعات الحضرية، فأتت صورة مادية صادقة للمجتمع المسلم، ومن خلال هذه المدينة أصبح باستطاعة العالم أن يرى هذا المجتمع ويشهد عليه ويتخذ موقفه منه؛ حيث تعتبر حجة الاسلام الدامغة على العالم أجمع، ولوحظ من خلال هذا البحث أنه عندما تم استخدام العمارة والتخطيط في تحويل مقاصد الشرع الإسلامي إلى حدود وفضاءات ومباني عامة وخاصة، فإن ذلك أنتج مدينة مثالية "فاضلة" شديدة الإخلاص للدين وأهله، فتظهر المجتمع المسلم للوجود وتجعله حقيقة قائمة وشاهدة على الناس أجمعين، فاستحقت بجدارة أن تحمل اسم الدين، وكانت أداةً بالغة الأثر والحكمة في الدعوة إلى الإسلام، بدليل أنها نفسها في جميع أرجاء العالم الإسلامي، وهي لا توجد خارج نطاقه.

وفي هذه المدينة تحققت مصلحة الأمة بمجموعها أفراداً وجماعات؛ لأن فيها نظام الفطرة السليمة الذي أراده الخالق جل جلاله، فتعتبر أداة للعيش وفق مرضاة الله جل جلاله، وفي هذه المدينة رست قواعد الحضارة والمدنية، وذلك بما حققته وحملته من عقيدة ربانية راسخة وسنة نبوية رشيدة، وانبثق عنهما نظام كامل للحياة، بما أقامته من أسباب العدل بين الناس وجمعهم على كلمة سواء، فأصبحت مدينة العلم والحضارة بلا منازع وبشهادة غير المسلمين، وفيها وجدت أكبر المكتبات في التاريخ، وهذه المدينة عاشت قروناً طويلة ثابتة بثبات العقيدة التي أنشأتها وفي قمة عطائها وازدهارها، وبقيت على الدوام تمدُّ العالم بالعلماء والمصلحين، نعم، لقد بقيت صامدة بتعاليمها الربانية وبمثلها وأخلاقها السامية وبعالميتها المتسامية، متسلحةً بالعلم والإيمان، ولكن أهلها والقائمين عليها لم يعرفوا قيمتها وخطورتها ولم يكونوا على مستوى عالميتها ولم يعوا أن مصيرهم كمسلمين كان مرهوناً ببقائها واستمرارها، حتى أفاقوا فجأةً على الاستعمار الغربي وهو يهدمها حجراً تلو حجر.

بينما نجد، بالمقابل، أن مدن الحضارات الأخرى (القديمة والحديثة) قد خضعت لسياسات وضعية لإمبراطوريات عسكرية واقتصادية، فأتت مدن منظمة ومرسومة بما يخدم أهداف واضعيها ومصالحهم ونظريات التخطيط الحضري تشهد بذلك، فهي تولد فقط من أجل حل مشكلة قائمة والعمل على عدم تفاقمها في المستقبل، وتقدم الخدمات بما يتوافق مع نظام الحركة الآلية بين المسكن ومكان العمل، وهي مدن صناعيّة أسست على محطات السكك الحديدية، ولم تؤسس على أساس الدين أي على مسجد جامع، فهي مدن حديثة غافلة تماماً عن الدين ولا تعترف بأهمية وجوده

وحقوقه، وتقوم فقط بالبناء الرمزي الأجوف لأيقونات وتحف للعبادة هنا وهناك.

وما هي إلا عبارة عن مراكز صناعية رأسمالية ضخمة غاب فيها المقياس الإنساني، حيث امتدت رأسياً وأبعدت الإنسان عن ربه وامتدت أفقياً فأبعدته أيضاً عن الريف وجمال الطبيعة، وظهرت الضواحي والتجمعات الحضرية الشريطية على امتداد الطرق فأرهقت الفضاء الحضري (Exhaust) بمشاكل النقل والمواصلات والتلوث ونقلت مراكز المدن وبعثرتها في كل الاتجاهات (علام، ١٩٩٨).

والمجتمع المسلم شديد الخصوصية لارتباطه القوي بالدين، وهو بذلك متميز عن سائر مجتمعات الأرض، وبالتالي ما ينفع لهذه المجتمعات لا ينفع بالضرورة له. حيث إن حفظ الدين في الإسلام يأتي مباشرةً، بالنسبة لمقاصد الشرع، بعد حفظ العقل وذلك لأهميته القصوى، ففي الثقافة الإسلامية، لا سعادة دنيوية دون الحرص والعمل على تحصيل السعادة الأخروية (الطنطاوي، ٢٠١٢).

وأخيراً، ومن باب الأمانة العلمية والشهادة للتاريخ وللحقيقة، وجب التنويه إلى أن المدينة العربية الإسلامية قد حققت على أرض الواقع، ومنذ أزمان بعيده، جميع ما بحث عنه علماء الاجتماع والتخطيط الغربيين وما زالوا يبحثون، محاولين تحديد مواصفات المدينة المثالية الخالية من المشاكل والتلوث والضوضاء والقائمة على مشاركة السكان والتي تحافظ على العائلة والمجتمع وتكون جزءاً داعماً للتنمية الشاملة، وهذا ما تمخضت عنه جل نظريات التخطيط عندهم، وجميعها تطلعات وأهداف لم ترَ النور وبقيت مجرد أفكار وحبر على ورق، ومازالت مدنهم بعيدة كل البعد عن هذه الطموحات.

التوصيات:

- تدارك المجتمع العربي المسلم قبل فوات الأوان، وذلك بالعودة إلى أسلوب تخطيط المدن الإسلامية، مع إدخال استخدام السيارات على محيط الأحياء السكنية فقط وليس بداخلها. فيتم بذلك استرداد البيئة الإسلامية المفقودة، التي ستعمل مباشرةً على كبح جماح حملة تغريب المجتمع العربي، وهي حملة أن لم يتم التصدي لها فإنها ستؤدي إلى تغيير المجتمع بالكلية، وذلك بقطع صلته مطلقاً بالدين والعقيدة.
- اذا لم يتسنى العودة إلى أسلوب تخطيط المدن الإسلامية لأسباب معينة، فمن الممكن جداً، على الأقل، تخطيط الضواحي الجديدة في المدن على مركز حضري يحتوي مسجد رئيسي محاط بالمباني الخدمية والأسواق، فيؤدي إلى تشكيل نواة لمدينة صغيرة ذات طابع عربي إسلامي حديث.

- نشر الوعي والاهتمام بالموروث العريق للحضارة العربية الإسلامية، وإحياء ثقافة الترميم بدل الهدم والإهمال، وهذا يقع على عاتق الدول والمنظمات في العالمين العربي والإسلامي، وفي مقدمتها: منظمة المدن العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ومنظمة العواصم والمدن الإسلامية، وأيضاً على المجتمع العربي المعاصر، والمتفرنج في غير وجاهة، أن يتحمل مسؤوليته تجاه هذه الحضارة.

صورة رقم (١): التوافق بين العمارة واللباس: عمارة بجدران مجردة وبدون عناصر معمارية خارجية سوى فتحات الأبواب، ولباس تقليدي خالي من الزينة ملتف ومحتشم وفضفاض.
المصدر: Fusaro.

صورة رقم (٢): الخط العربي واستخدامه المميز في العمارة الإسلامية. المصدر: الشبكة العنكبوتية.

صورة رقم (٣): التخطيط العضوي والتخطيط الهندسي للمدينة. المصدر: Cuneo،علّام.

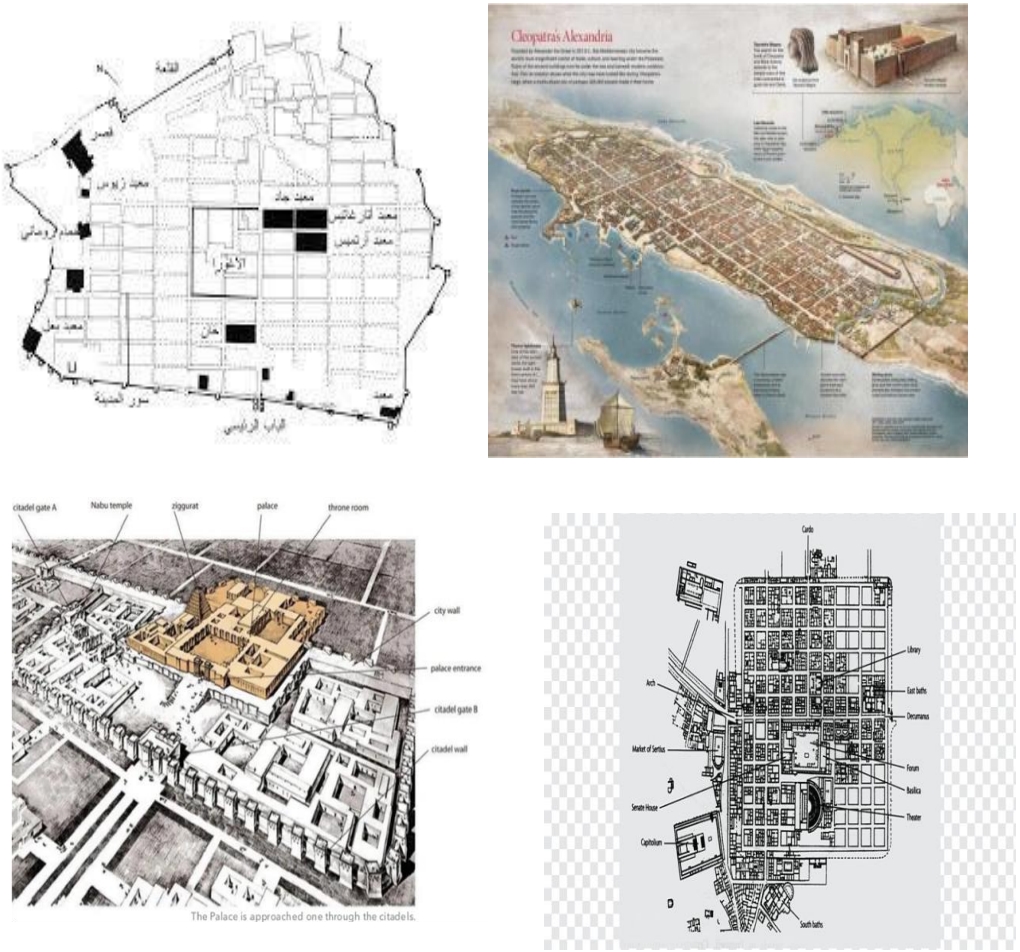

صورة رقم (٤): التخطيط الهندسي لمدن الحضارات القديمة. المصدر: الشبكة العنكبوتية.

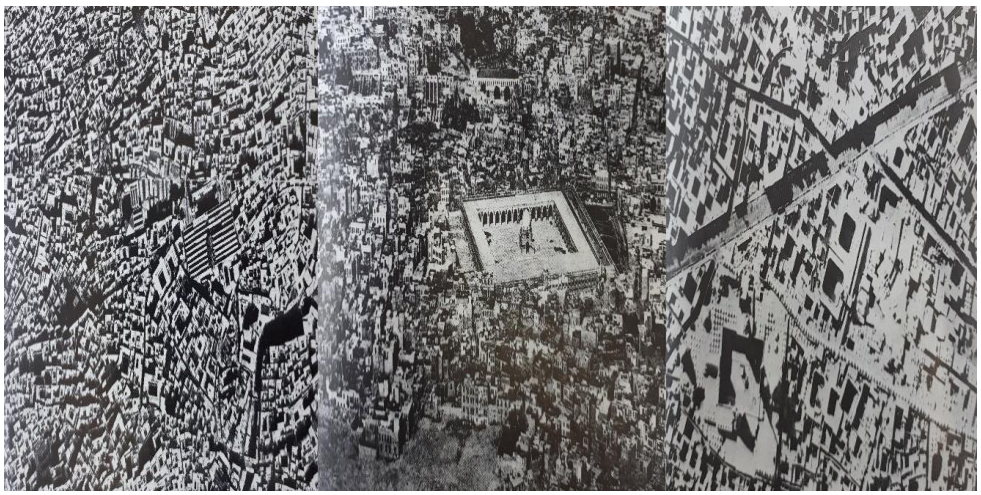

صورة رقم (٥): تشابه الشكل الأساسي للمدينة الإسلامية في شرق العالم الإسلامي ووسطه وغربه: أصفان، القاهرة، فاس. المصدر: Micara

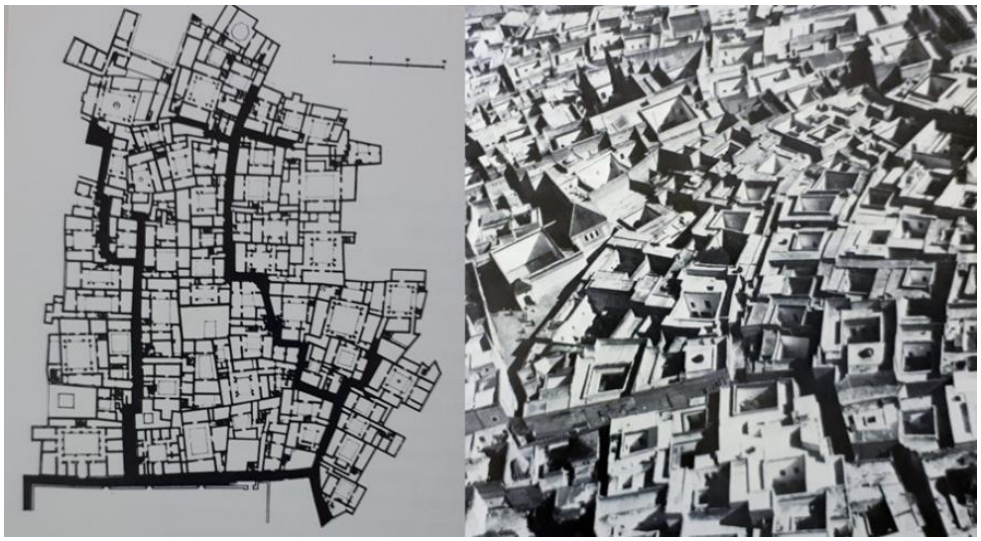

صورة رقم (٦): تشابك المباني وتزاحمها، وتراص الكتلة العمرانية، الفراغات هي الأحواش والشوارع فقط. المصدر: Micara

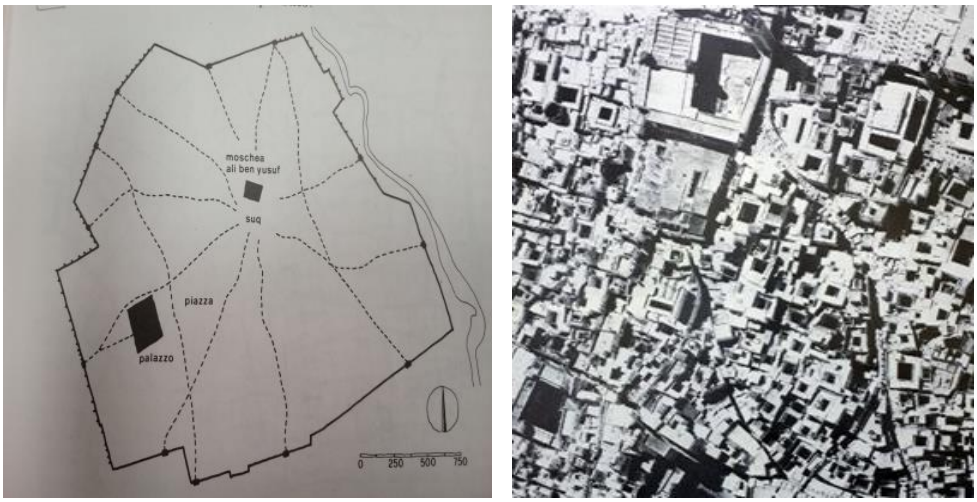

صورة رقم (٧): البنيان المرصوص والمناهج الرئيسية المؤدية للمسجد الجامع (مسجد الزيتونة– تونس، مراكش) المصدر: Micara

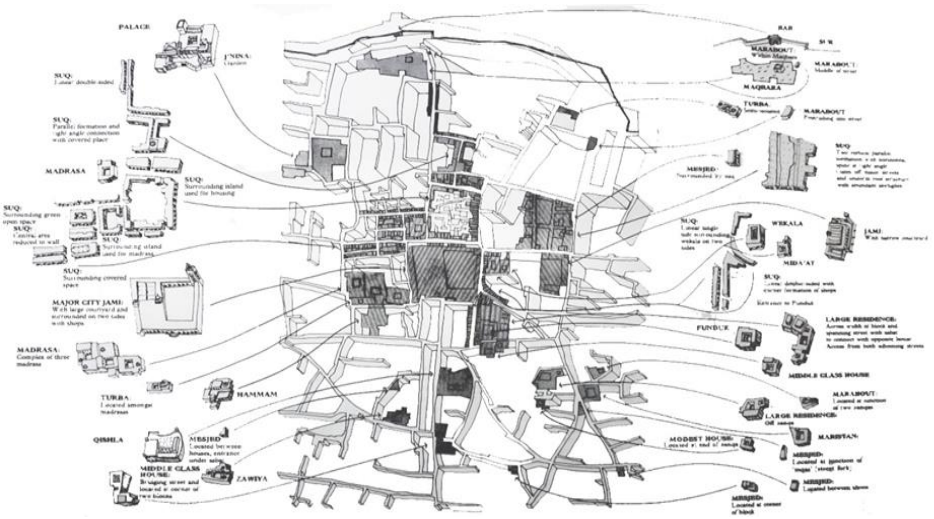

صورة رقم (٨): نموذج لتخطيط عام لهيكل المدينة الإسلامية ومركزها الحضري (مدينة تونس، مثالاً). المصدر: Waseem Hakeem

صورة رقم (٩): مركز المدينة (صفاقس و فاس) المكون من مباني خدمية مختلفة و موزعة على كافة مستويات الطرق. المصدر: Cuneo

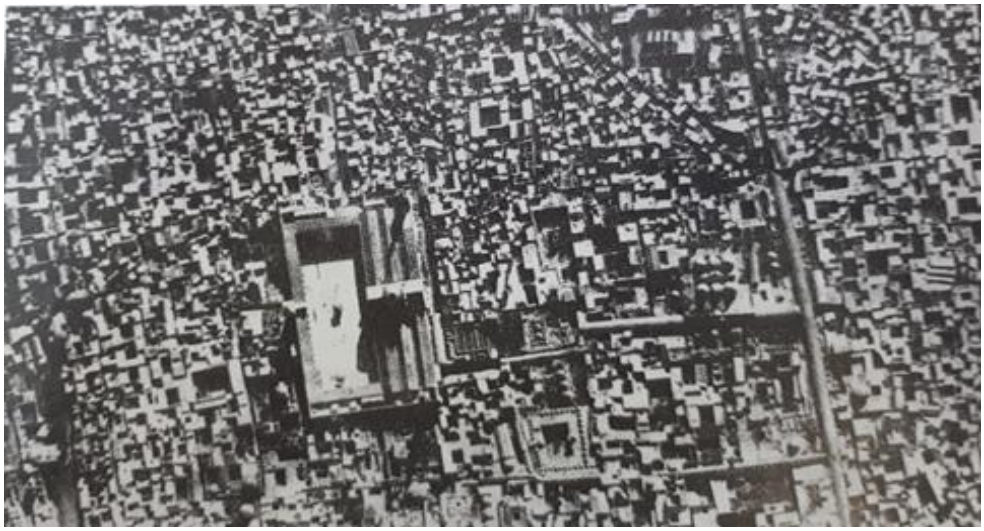

صورة رقم (١٠): حجم المسجد الجامع الذي يستوعب جميع النشاطات الحيوية للمدينة، وأهميته على المستوى التخطيطي (المسجد الأموي – دمشق). المصدر: Cuneo

صورة رقم (١١): المسجد الجامع كمغناطيس اجتماعي، يجمع الناس خمس مرات يومياً. المصدر: الشبكة العنكبوتية.

صورة رقم (١٢): أهمية المساجد الجامعة من حيث المساحة والمركزية والعناصر المعمارية (أحمد بن طولون والأزهر– القاهرة). المصدر: Fusaro

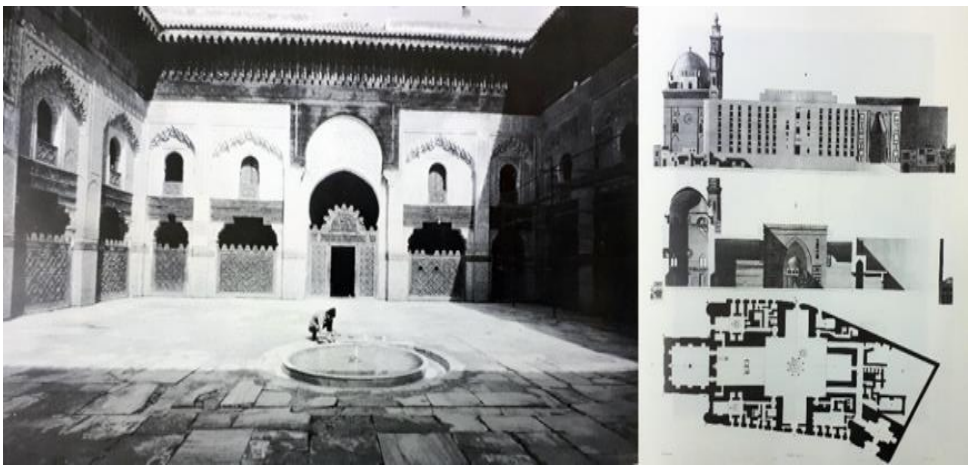

صورة رقم (١٣): مدرسة وضريح السلطان حسن ذات الأواوين الأربعة (القاهرة). الصحن السماوي لمدرسة البوعنانية (فاس). المصدر: Hillembrand

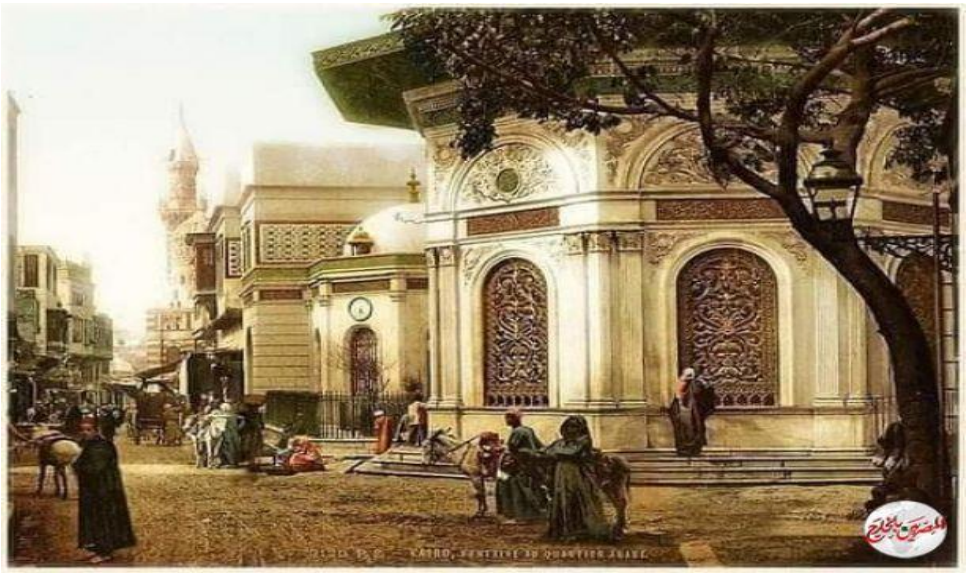

صورة رقم (١٤): السبيل (القاهرة). المصدر: الشبكة العنكبوتية

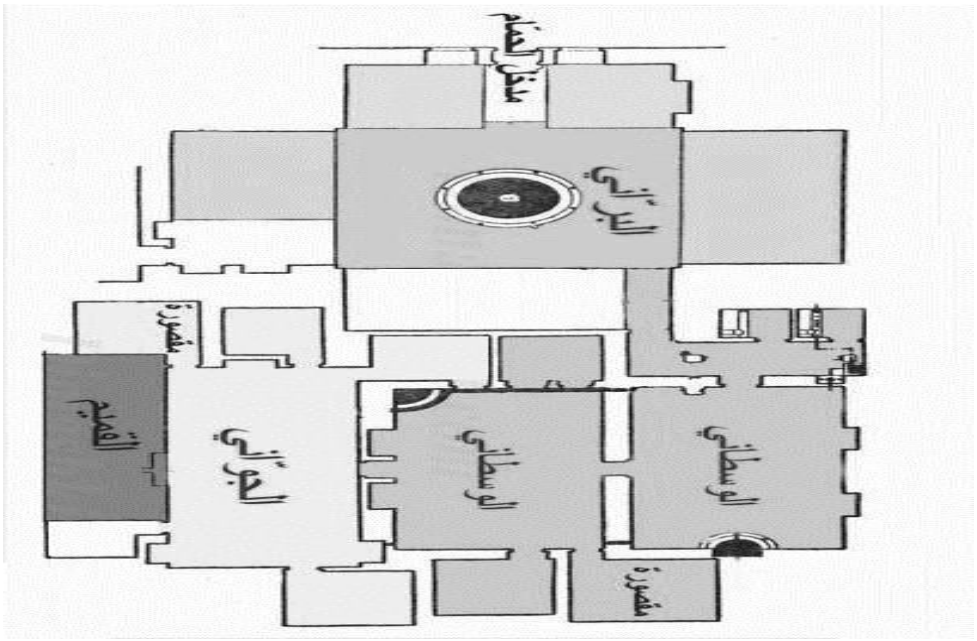

صورة رقم (١٥): الحمام العربي التقليدي. المصدر: شافعي.

صورة رقم (١٦): الميضأة. المصدر: الشبكة العنكبوتية.

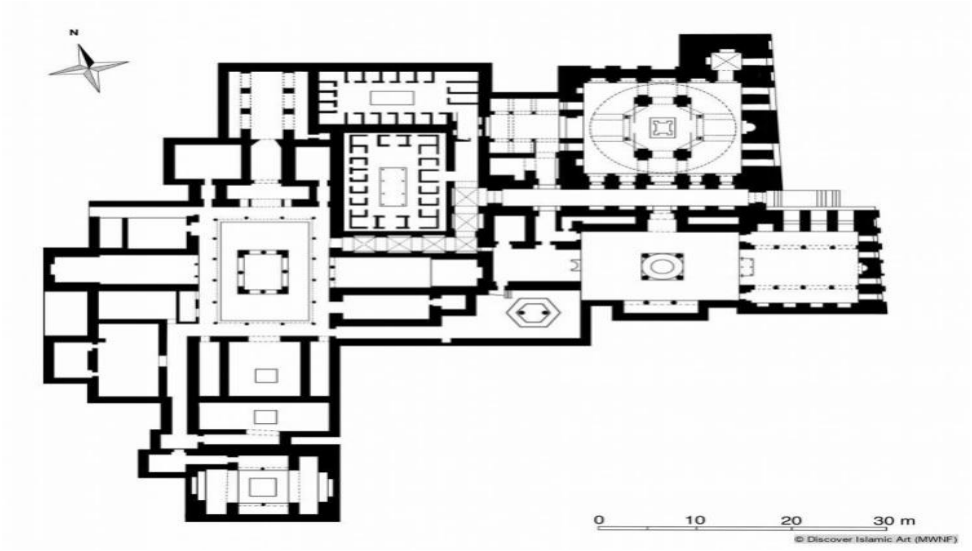

صورة رقم (١٧): مخطط مستشفى "بيمارستان" الناصر قلاوون بالقاهرة. المصدر: Cuneo

صورة رقم (١٨): الأسواق المسقفة بالأقبية والعقود الحجرية والقصب. المصدر: Fusaro

صورة رقم (١٩): خصوصية المناطق السكنية، والحلول البيئية لتلطيف درجة الحرارة. المصدر: أكبر

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الأزرق، أبو عبدالله. (١٩٧٧). **بدائع السلك في طبائع الملك**. (د. محمد عبد الكريم، المحرر) القاهرة: الدار العربية للكتاب.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري**، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- أبو حسين، محمد يوسف. (٥، ٢٠٢٣). **من المدينة إلى التجمع الحضري: عمان متروبول بثمن باهظ. مجلة دراسات** (مقبول للنشر).
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، ت: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. (١٩٧٩). **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. ط٣. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- بك، أحمد عيسى. (١٩٨١). **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**. بيروت: دار الرائد العربي.
- بيجوفيتش، علي عزت. (٢٠١٠). **الإسلام بين الشرق والغرب**. القاهرة: دار الشروق.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، **سنن الترمذي**، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، (ط٢)، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- ثويني، علي. (٢٠٠٥). **معجم عمارة الشعوب الإسلامية**. بغداد: بيت الحكمة.
- جعيط، هشام. (١٩٨٦). **الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية**. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- الحسني، سليم. (٢٠١١). **ألف اختراع واختراع: التراث الإسلامي في عالمنا**. لندن: Foundation for Science, Technology and Civilisation.
- الطنطاوي، علي. (٢٠١٢). **تعريف عام بدين الإسلام**. ط٦. جدة: دار المنار.
- عثمان، محمد عبد الستار. (١٩٨٨). **المدينة الإسلامية**. الكويت: سلسلة دار المعرفة.

- علام، أحمد خالد. (١٩٩٨). **تخطيط المدن**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- العمري، حفصة والنعمان، رائد. (٢٠١٣). **تنوع الطرز في العمارة الإسلامية وأثرها في تغيير التركيب الفضائي لأبنية المدارس الإسلامية**. **Al – Rafidain Engineering**، الصفحات ٣٥-٤٩.
- غرايبة، خليف. (٢٠١٥). **منهجية الفكر الإسلامي في تخطيط المدينة العربية الإسلامية**. **المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية**، ٨(١)، ١٨٣-١٩٩.
- فكري، أحمد. (٢٠٠٨). **مساجد القاهرة ومدارسها**. القاهرة: دار المعارف.
- القحطاني، هاني محمد. (٢٠٠٩). **مبادئ العمارة الإسلامية وتحولاتها المعاصرة: قراءة تحليلية في الشكل**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- قطب، سيد. (٢٠٠٦). **هذا الدين**. مج١١. القاهرة: دار الشروق.
- الكحلوت، محمد علي. (٢٠١٢). **قراءة تقييمية للمدينة الإسلامية وأسس تخطيطها**. غزة: الجامعة الإسلامية.
- مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، (المتوفى: ٢٦١هـ)، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم= صحيح مسلم**، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- المودودي، أبي الأعلى. (١٩٦١). **مبادئ الإسلام**. (محمد عاصم الحداد، المترجمون) دمشق: مكتبة الشباب المسلم.
- ناجي، عبد الجبار. (٤، ١٩٨٠). **المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية، دراسة نقدية مقارنة**. (عبد الحميد العلوجي، المحرر) المورد، الصفحات ١٣٦-١٧٠.
- هونكه، زيغريد. (٢٠١٣). **شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبة**. (فاروق بيضون وكمال دسوقي، المترجمون) عمان: وزارة الثقافة.
- وزيري، يحيى. (١٩٩٠). **خواطر الشيخ الشعراوي حول عمران المجتمع المسلم**. القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي.
- وزيري، يحيى. (٢٠٠٨). **العمران والبنيان من منظور الإسلام**. الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

- الوكيل، محمد. (١٩٨٢). **عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها**. القاهرة: دار الأنصار.
- اليسيف، نيكيتا. (١٩٨٣). **التخطيط المادي**. السيكومور: اليونسكو.

ثانياً: المراجع الأجنبيّة:

- Abu Hussein, M. Y. (2005). *La popolazione delle grandi città arabo-mediterranee in epoca ottomana*. Quaderni ISSM 77, CNR/Napoli-Italia.
- Bairoch, P. (1988). *Cities and Economic Development from the Down of History to the Present*. Chicago: University of Chicago Press.
- Beaujeu-Garnier & Chabot, J. (1963). *Trattato di Geografia Urbana*. Padova: Marsilio.
- Braudel, F. (1979). C*ivilisation materielle, economie et capitalisme (XV-XVIII siecles)*. Paris: Colin.
- Cuneo, P. (1986). *La Storia dell Urbanistica: il Mondo Islamico.* Roma - Bari: Laterza Editori.
- De Planhol, X. (1968). *Les Fondamente geographiques de L Histoire de L Islam.* Paris: Geuthner.
- Fusaro, F. (1984). *La citta Islamica*. Bari/Italy: Editori Laterza.
- Lassner, J. (1970). The Topography of Baghdad in Early Middl Ages. Detroit: Hardson.
- Marcais, W. (1928). *L islamisme et la vie urbaine.* Paris: L academie des Inscriptions.
- Panzac, D. (1985). *La peste dans l Empire Ottoman 1700-1850*. Paris: Editions Peeters.
- Pirenne, H. (1995). Le Citta del Medioevo. Bari: Laterza.